غسان كنفاني، وحركة الاستشهاد الفلسطينية

لا الوم ابن لاون ملك الروم، وان كان ما تمنّى، محالا
يجمع الروم والصقالب والبلغار فيها، وتجمع الآجالا
قصدوا هدم سورها فبنوه.. واتوا كي يقصروه، فطالا
واستجرّوا مكايد الحرب، حتى تركوها لها، عليهم وبالا
ربّ امر اتاك لا تحمد الفعّال فيه، وتحمد الافعالا!

ما لمن ينصب الحبائل في الارض ومرجاه ان يصيد الهلالا!
ابو الطيّب المتنبّي

في التاريخ ان اجدادنا احتلوا الاندلس ومكثوا فيها ثمانية قرون او نيفا وسبعة هذه حقيقة !

وفي التاريخ ايضاء ان اجدادنا جلبوا الحضارة والرقي والنور الى اوروبا التي كانت يومذاك جاهلة متخلفة.. وهذه حقيقة!

وفي التاريخ حقيقة اخرى تقول ان جيراننا الاسبان لمّوا شتاتهم ورأبوا فلولهم، ثم اخذوا يناوشون اجدادنا ويقاومونهم، حتى فتح عليهم اخيرا، وحرّروا بلادهم، دون ان ينقذنا او يشفع لنا، استيطان

غير متحضر، دام قرونا على قرون...

وقد برزت في المقاومة الاسبانية التليدة، ظاهرة اصبحت فيما بعد حركة سجلت في ارشيف الزمن باسم حركة الاستشهاد.. انها حركة اليأس التي يقدم عليها انسان يغالب الانفجار والتمزق، بينما تنقض عليه وتنهش فيه، قوة عنيفة غاشمة..

كان من انظمة الطوارىء التي ابتدعها اجدادنا في الاندلس، ان من يشتم الرسول العربي يعاقب بالاعدام، فما كان من افراد حركة الاستشهاد الا ان اخذوا يجوبون الشوارع ويشتمون الرسول العربي جهارا، حتى يعلقوا على المشانق، وبهذا يمارسون شكلا من اشكال التعبير عن رفض الاحتلال ومقاومته، وتحقيق الذات ..

هل سيؤدي استمرار نكبة الشعب العربي الفلسطيني الى ظهور حركة استشهاد داخل حركة المقاومة الفلسطينية؟

ان الاجابة بالايجاب تنطوي على الخطر، لا بالنسبة الى حركة المقاومة الفلسطينية وحدها، بل بالنسبة الى صانعي النكبة ايضا، من اسياد واتباع وعملاء وطيب الله انفاسك حيث انت يا ابا الطيب!

غسان كنفاني- لاجىء فلسطيني. ولد في عكا عام ١٩٢٦. حين بلغ الثانية عشرة من العمر هربت اسرته الى لبنان. لماذا؟ -لان تلك كانت سنة ١٩٤٨. اتم في المنفى دراسته الثانوية، ولكنه عمد الى التحصيل الذاتي فوسع ثقافته بصورة ملحوظة.

وساعده في ذلك حماسه الشديد لقضيته، وذكاؤه الحاد، واستعداده النفسي .. فرغم جسده المريض كان يتمتع بارادة قوية للغاية.

في الخمسينات، عمل مدرسا في الكويت، وبدأ ممارسة كتابة القصة القصيرة ونجح فيها واجاد. في الستينات استقر في بيروت وأخذ اسمه يتلألأ ويسطع في مجالي الادب والصحافة. وهناك عمل محررا لملحق جريدة الانوار الاسبوعي، ومحررا في مجلة الحرية وجريدة المحرر ثم محررا لمجلة الهدف الناطقة بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الى جانب اسهامه النشط في مجال الانتاج الادبي.

وضع غسان كنفاني قرابة ١٢ مؤلفا في الاقصوصة والرواية والمسرحية والنقد والسياسة منها: ما تبقى لكم، ارض البرتقال الحزين، رجال في الشمس، موت سرير رقم ١٢، في الادب الصهيوني، ادب المقاومة في فلسطين المحتلة، عائد الى حيفا، عن الرجال والبنادق، الادب المقاوم تحت الاحتلال الصهيوني..

وقد حققت له مؤلفاته سمعة طيبة وواسعة، عربيا وعالميا.

حتى عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧، غلب الاتجاه الادبي على نشاط غسان كنفاني، وامتازت اقاصيصه ورواياته القصيرة بتكثيف فني عال، ورمزية شفافة يطل من ورائها الوجه الجارح لمأساة الفلسطيني المشرد، الموجوء من اعدائه الحقيقيين واخوته الوهميين..

وفي اعماله تلك تجنب غسان مزالق التعميم والمباشرة الخطابية المكرورة وترديد الشعارات المصممة سلفا. لقد كان فنانا اصيلا بكل ما في الكلمة من معنى....

وجاء دور كارثة حزيران ١٩٦٧، فزعزعت غسان كنفاني بقدر ما زعزعت الانسان العربي في كل اقطاره، او بما يربو على ذلك .. ومنا بدأ انعطاف خطير وحاسم في حياة هذا الاديب المتحرك في الطليعة من الادب الفلسطيني والادب العربي الثوري .. لقد بلغت مرارته وخيبته ذروة لا رجعة عنها، وملأت ضميره وعقله رغبة ملحة في منازلة الموت،وجها لوجه. انه الاحساس بالوحدة والعزلة في معركة المصير، ذلك الاحساس الذي بدأت ارهاصاته عند غسان في اعماله الادبية المبكرة، والذي تختزنه عبارة من كتابه ما تبقى لكم يقول فيها: اورثني يقيني بوحدتي المطلقة، مزيدا من رغبتي في الدفاع عن حياتي دفاعا وحشيا!..

وفي اعقاب حزيران، غلب العمل السياسي والصحفي على نشاطات غسان كنفاني الابداعية. ورغم الاحترام والحب اللذين نكنهما له عميقا في قلوبنا ونفوسنا، لا بد لنا من تأكيد تحفظنا الشديد من بعض افكاره التي نعتبرها مغامرة، والتي تتجسد في موقفه المتحمس لعمليات خطف الطائرات، التي نرى انها الحقت الضرر بالثورة الفلسطينية، ولم تجلب نفعا او خيرا ملموسا.

بيد ان هذه الثغرة في موقف غسان كنفاني الرافض للمأساة الذي ظل يقرع بلا انقطاع ليوقظ ويثير ويعبىء ويجند، من اجل القضية العادلة، قضية شعبنا العربي الفلسطيني .. لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقولوا؟ لماذا؟ هكذا يقرع جرس غسان كنفاني في روايته الرائعة رجال في الشمس.

وبعد، فان الذين اغتالوا غسان كنفاني ليسوا اهلا لها.. ان اغتيال الادباء والمفكرين جريمة تدين العصر وتدمغ مقترفيها بالجبن والعار الابديين.

والذي يخمن ان مصرع فلسطيني آخر، يعني مصرع القضية الفلسطينية غر هو وفدم اخرق والحق الراسخ، العادل والمشروع، حي وسيبقى، ما دام الفلسطيني الاخير على قيد الحياة ..

وكما كانت حياة غسان كنفاني رمزاً لصمود شعبه، فان مصرعه رمز لجلال هذا الصُمود في سبيل القضية الرابحة.. حتما!!!